نَظراتٌ في قضِيَّةِ العَوْلَمةِ

حسن الشَّافعي(*)

الحمدُ للَّهِ، والصلاةُ والسلامُ على جميعِ أنبيائهِ ورُسُلِه.

وبعدُ:

فهذه ثلاثُ نَظَراتٍ: الأولى إلى العَوْلمةِ في ذاتِها، والثانيةُ إلى العَوْلمةِ الرَّاهنةِ ومَعايبِها، والأخيرةُ عن العِلاجِ أو الإصلاحِ.

أبدأُ أوَّلًا -رعايةً للوقتِ- بالدخولِ مُباشرةً في الموضوعِ الأولِ، فأقولُ: إنَّ العَوْلمةَ ليسَتْ في ذاتِها شرًّا، وإن كانَ التطبيقُ الأمريكيُّ الحاليُّ ليس خيرًا، ولم يجلِبْ آثارًا إيجابيَّةً في واقعِ العالمِ المعاصرِ، بل إنَّ العَوْلمةَ تبدو في حقيقةِ الأمرِ -لمن يُراقِبُ التاريخَ البَشَريَّ- مصيرًا لا بدَّ منه، فالتطوُّرُ الإنسانيُّ يتَّجِهُ إلى اتِّساقِ النظرةِ الإنسانيَّةِ إلى المشهَدِ البَشَريِّ، وإلى سياساتٍ دوليَّةٍ جامعةٍ، وإلى كِياناتٍ قانونيةٍ وسياساتٍ أكبرَ درجةً بعدَ درجةٍ.

فالإغريقُ في أولِ أمرِهم لم يَعرِفوا إلَّا دولةَ المدينةِ -دولةَ أثينا أو إسبرطةَ - ولكنَّه لم تلبَثِ المنطِقةُ أن نَزَعَتْ إلى فكرةِ الإمبراطوريةِ على يدِ الإسكندرِ، ثم إن أوروبا عَرَفَتْ أيضًا التنظيمَ الدوليَّ على يدِ الرومانِ عابرًا للقارَّاتِ، وعادَتْ بعد التفكُّكِ إلى دولةِ الدُّوقِ أو الأميرِ المحلِّيِّ، ثم نَزَعَتْ مرةً أخرى إلى التوحُّدِ تحتَ لواءِ الكنيسةِ قُرونًا مِنَ الزمنِ حتى صاغَتِ الحداثةُ فكرةَ الدولةِ الوطنيَّةِ أو القوميَّةِ.

وكانتِ الحضارةُ الإسلاميَّةُ في مبدأِ أمرِها تقومُ على الدعوةِ إلى الوَحدةِ الإنسانيةِ والمساواةِ البشريةِ، ولذلك لم تلبَثْ بعدَ عُقودٍ قليلةٍ أن صاغَتْ نظامًا انطلَقَ من المدينةِ المنوَّرةِ، دولةِ المدينةِ، إلى كِيانٍ عالمِيٍّ عابرٍ للقارَّاتِ، وقدَّمَتْ تلك الحضارةُ نماذجَ ثلاثةً لدُوَلٍ أو حكوماتٍ أو إمبراطورياتٍ -إن شئتُم التسميةَ- عابرةٍ للقارَّاتِ.

كانت بعضُ هذه الإمبراطوريَّاتِ -كما هو معلومٌ لدى دارسي التاريخِ- أطولَ الإمبراطورياتِ عُمرًا في التاريخِ الإنسانيِّ، أمَّا التوجُّهُ الإسلاميُّ الحضاريُّ في الحقيقةِ فإنَّما يقومُ كما استمَعْنا بالأمسِ، ولا أُطيلُ في هذا الجانبِ، وإنما أذكُرُ أن الآيةَ الكريمةَ التي أصبحَتْ أيقونةَ التلاقي الإنسانيِّ -كما أشار فضيلةُ الإمامِ الأكبرِ بالأمسِ- هي: [يا أيها الناس]، وليس: يا أيُّها الذين آمَنوا، ولا: يا أيُّها المؤمنون، ولا: يا أيُّها المسلمون. [إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا] [الحجرات: ١٣] والتعارُفُ يقودُ إلى

التعاطُفِ ثم يقودُ إلى التعاوُنِ، فهذا هو الأساسُ الفِكريُّ لهذا النظام الدوليِّ الإسلاميِّ.

وثانيًا: فإنَّ القرآنَ الكريمَ ينظُرُ إلى البشريَّةِ وإلى البَشَرِ كافَّةً على أنَّهم إخوةٌ، دُونَ نظرٍ إلى دينٍ أو لغةٍ أو جِنسٍ أو أصلٍ، وإنَّما إلى مجرَّدِ الانتماءِ إلى آدمَ [ولقد كرمنا بني آدم] [الإسراء: ٧٠]، كما أنَّ القرآنَ يؤكِّدُ هذه الأخوةَ مرةً بعدَ مرةٍ في سورةِ هودٍ عليه السلامُ فيقولُ في البدايةِ: [وإلى ثمود أخاهم صالحا] [هود: ٦١] ثم يقولُ بعدَ ذلكَ: [وإلى مدين أخاهم شعيبا] [هود: ٨٤]، ومِن قبلِ هذين يقولُ: [وإلى عاد أخاهم هودا] [هود: ٥٠]. هذه الأخوةُ بينَ عادٍ وهُودٍ - وهي الآيةُ الأسبقُ- يعقُبُها قولُ اللهِ عز وجل: [ألا إن عادا كفروا ربهم ألا بعدا لعاد قوم هود] [هود: ٦٠]، فلم تكن عادٌ مؤمنةً ولا مسلمةً، وإنما كانت كافرةً، ومَعَ ذلكَ قالَ اللهُ تعالى: [وإلى عاد أخاهم هودا]، ثم ثَنَّى: [وإلى ثمود أخاهم صالحا] ثم كرَّرَ ثالثًا] :وإلى مدين أخاهم شعيبًا].

فالأخوةُ الإنسانيةُ في نَظَرِ القرآنِ هي أخوةٌ عامةٌ لبني آدمَ بحُكمِ كونِهم آدميِّينَ وبَشَرًا، ومِن ثَمَّ كانت النظرةُ الإنسانيةُ الحضاريةُ العامةُ طبيعيةً مُتَّسِقةً مع الدعوةِ الإسلاميةِ.

فالواقعُ أن العَوْلمةَ في ذاتِها خيرٌ، خُصوصًا إذا ما أَنتجَتْ -كما سمِعْنا- الآنَ قريةً واحدةً تتحرَّكُ فيها الأفكارُ والعُلومُ والأشخاصُ ورُءوسُ الأموالِ والمخترعاتُ في الفضاءِ الإنسانيِّ، دونَ تمييزٍ بينَ شعبٍ وشعبٍ، وبين لونٍ ولونٍ، وبين دينٍ ودينٍ، فهل هذا هو ما حقَّقَتْه العلومُ المعاصرةُ؟! أظنُّ أن الإجابةَ بالسَّلْبِ.

هذا رأيي المتواضِعُ، وأعتقِدُ أن الكثيرينَ منكم يَعلَمونَ أن هذه العَوْلمةَ المعاصرةَ تنصُرُ لغةً واحدةً، وحضارةً واحدةً، ورؤيةً واحدةً للعالَمِ، وتريدُ أن تفرضَها على العالمِ بوسائلَ متعددةٍ، ولم تنشَأْ عنها قريةٌ واحدةٌ على مُستوى العالمِ.

نعم، ربَّما كنتُم تتمتَّعون في الغربِ بما يُشبِهُ القريةَ الواحدةَ، وأعتقِدُ أن هذا لم يتحقَّقْ بعدُ، ولكنَّه في الطريقِ، والاتحادُ كان خُطوةً، وأمَّا العالَمُ وراءَ المحيطِ فعالَمٌ على حِياله، وأما عندنا فقد تحوَّلْنا إلى قرًى مُتعددةٍ، تفرَّقتِ القريةُ الواحدةُ إلى عددٍ مِن القُرى، وهذا ما سنراهُ بعد قليلٍ.

إنَّ العَوْلمةَ المعاصرةَ -وأنتقلُ إلى النقطةِ الثانيةِ- لم تنسَ تاريخَها القديمَ في استنزافِ مُقدَّراتِ الآخَرينَ لصالحِ الغربِ، أو قُلْ: لصالحِ أمريكا بوجهٍ خالصٍ، وعادَتْ تدعو إلى انتقالِ رُءوسِ الأموالِ، ولكن عن طريقِ البُنوكِ الأمريكيةِ،

وتُنادي بحُريةِ انتقالِ البشرِ، وتُحارِبُ ذلكَ، ولم تسمَحْ ولا تسمَحُ -وأظنُّ أن أوروبا ما زال فيها بعضُ هذا- لا تسمَحُ بانتقالِ الأفكارِ العِلميَّةِ والمخترعاتِ بينَ مُختلَفِ الشعوبِ.

إنَّه كلامٌ على الوَرَقِ وفي الهواءِ، ولا حقيقةَ له في الواقعِ، على الأقلِّ في عالمِنا الشرقيِّ، وقد استمَعْنا أمسِ إلى مُحاولةٍ للتقريبِ بينَ الشرقِ والغربِ، وأنا أكتفي فقط باللقاءِ بينَ الشرقِ المتمثِّلِ في العربِ والمسلمينَ، والغربِ المتمثِّلِ في الاتحادِ الأوروبيِّ، حتى نكونَ مُحدَّدينَ، إنه كَلَامٌ على الوَرَقِ، والواقعُ معلومٌ لي ولكم، وهذه العَوْلمةُ المزعومةُ لم تنسَ أيضًا المركزيةَ والهيمنةَ، بل هي في دمِها، أو قُلْ: إن الهيمنةَ الغربيةَ على العالمِ، أو الهيمنةَ الأمريكيةَ هي في الحقيقةِ تنظُرُ إلى الآخَرينَ على أنهم رَعايا، وأنها هي الشُّرْطيُّ القائدُ الذي يحكُمُ الدنيا ويُكرِّمُ الإنسانَ ويُنادي بحقوقِه، ولكنها تربِطُ ذلكَ بلونِ البَشَرةِ؛ فالإنسانُ يستحقُّ التكريمَ بناءً على لونِ بَشَرتِه، ولا تنسَ أن آخِرَ انتفاضةٍ في العامِ الحاليِّ إنما كانت انتفاضةَ السُّودِ الأمريكانِ، وهي ليستِ الأُولى.

لقد كانتِ الردودُ على المظالمِ الأمريكيَّةِ والتمييزِ الأمريكيِّ الفجِّ والفاضِحِ في القُرونِ السابقةِ -قاسيةً، وإن لم تكُنْ إرهابيةً، فقام مَن يُنادي بدِيانةٍ للسُّودِ، حتى قال بأنَّ اللَّهَ نَفْسَه أَسْوَدُ. نعم؛ تعدَّلَتْ هذه الأفكارُ بعدَ محمدٍ، ولكِنْ كان عُدوانًا على الفِكرِ وعلى العقيدةِ وعلى الدينِ، وأكثرَ خَطَرًا مِن العُدوانِ الذي تُمارسُه القُوى المسلَّحةُ، فهذا التطبيقُ الذي ما زِلْنا نجدُ آثارَه، حتى اعترفَ القومُ بأنهم ليسُوا الدولةَ النموذجَ، وأنَّ لديهم عُيوبًا تستحِقُّ الإصلاحَ.

ثانيًا: نسألُ ونتساءلُ: هل جَلَبَتْ هذه العولمةُ السَّعادةَ أو الاستقرارَ أو الأمنَ لِشعوبِ العالمِ؟

أَترُكُ الإجابةَ لكم.

في الواقعِ المُعاصرِ إنَّ بعضَ اللُّغاتِ والثَّقافاتِ وبعضَ اللغاتِ الأخرى في طَرِيقِها للاختفاءِ، فهل هذا إضافةٌ إلى حضاراتِ العالمِ، أم أنَّه خسارةٌ ونقصٌ في ثروةِ العالمِ الحضاريةِ؟ ثُمَّ إنَّ الحضاراتِ الأُخرى غيرَ الغربيةِ أو تلكَ التي تقودُها أمريكا لا يُرادُ لها أَنْ تَتَطورَ، ولا أَن تَنمُوَ، ولا حتى أن تتمتعَ بالديمُقراطيةِ، إنَّهم لا يستحقونَ الديمُقراطيةَ، ولا أَنْ تَزدهرَ طِبقًا لِخُصُوصِيَّتِها الحضاريَّةِ، ومَنطِقِها الخاصِّ، ورُوحِها المُمَيَّزةِ.

إنَّ خُبَراءَ البَنكِ الدَّوليِّ يضعونَ المناهجَ للتعليمِ الدِّينيِّ في القارةِ الهنديةِ (في باكستان، والهند، وبنجلادش)، ما دَخلُ خُبراءِ البَنكِ بِتطويرِ الحَضَاراتِ

والثَّقافاتِ؟! إنَّهم يريدونَ أَنْ يُطَوِّروا هذهِ الثَّقافةَ طِبقًا للمقاييسِ الأمريكيةِ الغربيةِ، اقرأ «تشومسكي» وليسَ مُسلمًا ولا عَرَبيًّا.

إنَّ أمريكا لا تَعملُ على الاحتفاظِ بِقوَّتِها -وهذا حَقُّها المَشروعُ-، ولكنَّها تَعملُ على الاحتفاظِ بالآخرينَ ضُعفاءَ حتى تَبقَى هِيَ في مكانَتِها الوَحيدةِ على قمَّةِ العالمِ، وهذا أمرٌ غيرُ مشروعٍ، بل هو الجَورُ والظُّلمُ والعدوانُ، وليست أوروبا ولا الصينُ بعيدةً عن هذهِ السِّياساتِ، وأكتفي بهذهِ الإشارةِ.

بعدَ أَنْ نَجَحَ «ريجين» في إسقاطِ الاتحادِ السوفيتي -ونتائجُ هذه الخُطَى العولميةِ الأمريكيةِ تُمثِّلُ في نظري خسارةً لِثقافةِ العالمِ وحَضَاراتِهِ- فكيفَ يُمكنُ الإصلاحُ وهل مِن سبيلٍ إليه؟ نَعَم ما دَامَت العَولمةُ هي المصيرَ الذي لا بُدَّ مِنهُ، وهِيَ الاتجاه الطبيعي للتاريخِ الإنسانيِّ، وهِيَ لَيسَت شرًّا في ذَاتِها، بل يُمكِنُ أَنْ تكونَ خيرًا خالصًا، فعلينا أَنْ نَبحَثَ عَن العِلاجِ.

أولًا: بِالاعترافِ بالخُصُوصِيَّاتِ الثَّقَافِيَّةِ واللُّغَويَّةِ والحَضَاريَّةِ، والسَّعي إلى التَّعارفِ والتَّكامُلِ والتَّبَادُلِ والتَّواصُلِ على أَسَاسٍ مِن هَذا التَّمايُزِ، وعلى أَسَاسِ التَّعَدُّدِيَّةِ الحَضَارِيَّةِ دُونَ تَمييزٍ أو استعلاءٍ أو إنجَازٍ، ولكن على أَساسِ المُسَاوَاةِ والعَدَالَةِ.

ثانيًا: إعادةُ الاعتبارِ للفَلسَفةِ والمعاييرِ التي يَقومُ عَليها القَانونُ الدَّوْليُّ، فهذا مكسبٌ للبَشَريَّةِ لا يُمكنُ التَّنازُلُ عنهُ، وإعادةُ الاعتبارِ للدَّولةِ الوَطَنيَّةِ، والتَّعاملُ الدَّوْليُّ على أَسَاسِ النِّدِّيَّةِ بينَ الدُّولِ والاحترامِ المتبادلِ بينها، والتَّوقفُ عَن إعفاءِ بعضِ الدُّولِ مِن القُيودِ القَانونيَّةِ والمسئوليَّةِ القَانونيَّةِ، فَلِأمريكا أَنْ تَتَصرَّفَ خارجَ القانونِ، وأَنْ تَخترِقَ السِّيادَاتِ الوَطنِيَّةَ دونَ حسابٍ، ولإسرائيلَ أَنْ تَتَصرَّفَ فوقَ القانونِ.

ثالثًا: إلغاءُ فكرةِ شُرطِيِّ العَالمِ أو نِظَامِ القُوةِ العَالميَّةِ الوحيدةِ أو القُطبيَّةِ الواحِدَةِ، فالسُّلطانُ الأَوحَدُ في العَالَمِ إنَّما هُوَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ، والتُّراثُ الإسلَاميُّ يَكرَهُ بل يُحرِّمُ أَنْ يَصِفَ أَحدٌ مِنَ الحُكَّامِ نَفسَهُ بـ «شَاهَان شَاهْ» أو «مَلِك المُلُوكِ»؛ لأن «مَلِكَ المُلُوكِ» في الحقيقةِ هُوَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ، والقُرآنُ يُؤكِّدُ في آخِرِ سُورةٍ مِن سُوَرِهِ: [قل أعوذ برب الناس * ملك الناس * إله الناس] [الناس: ١- ٣] فَالمِلكِيَّةُ والسِّيَادةُ المُتَفرِّدَةُ في العَالمِ إنَّما هِيَ في الحقيقةِ للهِ عَزَّ وَجَلَّ، ولا يَنبغِي أَنْ يَدَّعِيَها أَحدٌ، وإذا ادَّعَاهَا أَحدٌ فمَصِيرُهُ إلى الزَّوَالِ، فَفِي الحَدِيثِ القُدسِيِّ، يَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: «الكِبْرِيَاءُ رِدَائِي ,وَالعَظَمَةُ إِزَارِي ,فَمَنْ نَازَعَنِي مِنْهُمَا شَيْئًا قَصَمْتُهُ»(*). ونَحنُ نَرفُضُ التَّحكُّمَ في العَالَمِ بِنَاءً على أَيِّ اعتبَارٍ مِن الاعتبَاراتِ.

رابعًا: الإيمانُ حقًّا بِحرِّيَّةِ انتقالِ الأفرادِ والأموالِ والأفكارِ والمبادئِ كالديمُقراطيَّةِ وحُقوقِ الإنسَانِ والفَضاءِ الإنسَانِيِّ، تِلكَ هِيَ العَولَمةُ الحقيقيَّةُ التي نَنشُدُها نحنُ وأَنتُم، عُقلاءَ الغَربِ.

خامسًا وأخيرًا: إنَّنَا يَنبَغِي أَلَّا نُبَالِغَ وأَلَّا نُهوِّنَ مِن خَطَرِ الإرهَابِ، لقد أُعجبتُ بِكُلِّ التَّقدِيماتِ التي كانَت بِالأَمسِ، وَلكنْ أَزعَجَنِي القَلقُ الشَّدِيدُ مِن «داعش»، والخَرْقُ الذي أَصابَ الجِدارَ الرَّاسِخَ، وَأعتَقِدُ أَنَّها لَو تَوَقَفَت القُوَّةُ العَالَمِيَّةُ الرَّاميةُ إلى تَفكِيكِ العَالَمِ العَرَبِيِّ وإلى تَفتِيتِهِ إلى قُرًى صَغِيرةٍ، وذَلكَ لِصَالِحِ القَواعِدِ العَسكَرِيَّةِ الأمريكيةِ وَمَصَالِحِهَا المشبوهَةِ، وأيضًا للهَيمَنَةِ الإسرَائِيلِيَّةِ على المنطَقَةِ. لَو توقَّفَت هَذِهِ التَّدخُّلَاتُ العَالَمِيَّةُ؛ فَإِنَّ العربَ والمسلمينَ مُؤَيَّدينَ بِأُوروبا التي هِيَ أَوَّلُ مَن يَجِبُ أَنْ تتحَرَّكَ في هَذَا الصَّدَدِ لمصَالِحِهَا الحَقِيقيَّةِ، لَو أنَّنَا أَقَمنَا مَوقِفًا مُشتَرَكًا ,لاستَطَعنا القَضَاءَ على «داعش» وَغيرِ «داعش».

ولَكنَّ الحَقِيقَةَ الأُخرَى التي أُصَارِحُكُم بِهَا: هِيَ أَنَّنَا حتَّى لَو نَجَحْنا في القَضَاءِ على «داعش» فَسَوفَ تَظهَرُ «داعش» و«فَاحشٌ» وسَائِرُ الفَوَاحِشِ، مَا دَامَت القَضيَّةُ الأَسَاسِيَّةُ التي تُستَثمَرُ في هَذَا الصَّدَدِ والتي يَستَغِلُّهَا هَؤلاءِ، وَهِي القَضِيَّةُ الفِلسطِينيَّةُ- قائمةً على الوَضْعِ الجَائِرِ الظَّالِمِ سبعةَ عُقُودٍ كامِلةٍ.

إنَّ الدَّاعِشِيِّينَ أو الشَّبابَ الأُورُوبيَّ الذينَ يَترُكُونَ نَعِيمَ أُورُوبا إلى جَحِيمِ «داعش» ضَحَايَا ومجرمُونَ، إنَّهم مخُطِئونَ إذْ يَقتُلُونَ الآخَرِينَ، ولكنَّهُم ضَحَايَا عَدَمِ العَدَالَةِ والتَّمييزِ، وإنَّكُم لَم تَنْجَحُوا بَعدُ في تَحقِيقِ التَّضَامُنِ الاجتِمَاعِيِّ في مجتمعَاتِكُم، وَلم تنجحوا في رَبطِ الكَرَامَةِ بِالآدَمِيَّةِ وَلَيسَ بِاللَّونِ ، وإلَّا لَمَا تَوجَّهَ أَكثَرُ مِن أَلفَي شَابٍّ أُورُوبيٍّ لِكَي يُحارِبُوا في صُفُوفِ «داعش»، ولَكنَّ «داعش» لَيسَت هِيَ نِهايَةَ المَسأَلَةِ، سَوفَ نَظَلُّ نُواجِهُ مِثلَ هَذِهِ المَشَاكِلِ مَا دَامَت المَظَالِمُ قَائِمَةً، ومَا دَامَ هَؤلَاءِ ضَحَايَا مَا يَرَونَهُ مِن مَظَالِمَ للشُّعُوبِ الإسلَامِيَّةِ.

أَلَستُم مَعِي في أَنَّ حَربَ الإرهَابِ تَتَوجَّهُ إلى العَالَمِ الإسلَامِيِّ وَحدَهُ؟ أَلَيسَت سِتَّةُ شُعوبٍ -الصُّومَالُ، والأفغَانُ، والعِراقُ، وسُوريا، واليَمَنُ، ولِيبيَا - هُم ضَحَايَا هَذِهِ العَولمَةِ المزعُومَةِ أَو هَذِهِ الحَربِ العَالَمِيَّةِ على الإرهَابِ؟ هَذَا مَا يَراهُ الشَّبابُ، وَمِن أَجلِ ذَلكَ فَإنَّهُم يَرحَلُونَ مِن نَعِيمِ أُورُوبَّا إلى جَحِيمِ «داعش».

يَجِبُ أَنْ تَسأَلُوا أَنفُسَكُم هَذَا السُّؤَالَ، وَلَيسَت «داعش» هِيَ نِهَايَةَ المَطَافِ، صَدِّقُونِي!.

وَلَكِنْ نَعَم؛ نَستَطِيعُ القَضَاءَ عَلَيها بِأَمرَينِ: بِإقَامَةِ العَدَالَةِ، وبِالتَّنشِئَةِ الصَّالِحَةِ.

فَأَمَّا إِقَامَةُ العَدَالَةِ فَهِي في أَيدِيكُم، وَأَمَّا التَّنشِئَةُ الصَّالِحَةُ فَيَستَطِيعُ الأَزهَرُ وشَيخُهُ الفَاضِلُ المَوجُودُ مَعَنَا أَن يَتَعاوَنَ مَعَكُم في تَحقِيقِ ذَلِكَ.

أَقُولُ قَولِي هَذَا وَأَسأَلُ اللَّهَ لِي وَلَكُم التَّوفِيقَ.

وَالسَّلَامُ عَلَيكُم وَرَحمَةُ اللَّهِ

* * *